

المأوردى

أعلام المؤرخين

أقضى القضاة الماوردي

في شوارع البصرة وفي زمن العباسيين، كان هناك طفل صغير لم يتجاوز الرابعة من عمره، ورث عن أبيه صناعة (ماء الورد) يقضي النهار كله أمام أبواب المساجد، يبيع ماء الورد لطلاب العلم ورواد المدارس مقابل دراهم معدودة، يتقوى بها على متاع الحياة.

وقد أصبح هذا الصبي من قادة الفكر وحملة مشاعل العلم ومن أبرز رجال السياسة، وقاضياً من أعدل القضاة، وأديباً ناضجاً ومؤلفاً عظيماً في شتى فروع ثقافة أمته.. إنه (أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي) الشهير بالماوردي.. ولد عام ٣٦٤هـ - ٩٧٤م في مدينة البصرة، ونشأ فيها يسقى طلاب العلم ماء الورد، ويرتوي من علم العلماء المشهورين في زمانه، وظل في البصرة حتى سمع أن عالماً ببغداد يقصده الطلاب من كافة الأنحاء هو (أبو حامد الإسفراييني) فتعلم على يديه الفقه والعلوم الشرعية، وأصبح من مريديه، وما زال يرحل ويتنقل في بلاد المسلمين طلباً للمعرفة حتى عاد إلى بغداد، ليبدأ فيها رحلة الدرس والتأليف، يتلقى عنه الطلاب القادمون من بلاد كثيرة. وتولى الماوردي القضاء في البلاد التي رحل إليها، كما تولى وظيفة قاضي القضاة في نيسابور، وذاعت شهرته، ولقب بأقضى القضاة سنة ٤٢٩هـ، وكان أول من لقب بذلك في تاريخ الإسلام، وعلم الماوردي أن توليه القضاء ليس تشريفاً له، ولكنها رسالة وأمانة في عنقه؛ فكان يتمهل قبل أن يصدر أحكامه، ويقرأ كتاب الله وأحاديث رسوله، حتى لا يضل الطريق؛ فيقضي بحكم فيه ظلم لأحد، كما كان جريئاً عادلاً، لا تأخذه في الله لومة لائم، يحكم بالحق حتى على أولي القربى وأصحاب السلطان.

فقد أمر الخليفة العباسي أن يلقب جلال الدين بن بويه بلقب شاهنشاه الأعظم ملك الملوك، واختلف الفقهاء ما بين موافق، وغير موافق لأن هذا اللقب لا يجوز إلا في حق الله، وانحاز عوام الناس إلى رأي الفقهاء المانعين، وانتظر الجميع رأي القاضي الماوردي الذي كانت تربطه بجلال الدين البويهى صلة ود وصداقة؛ وظهرت شجاعة الماوردي، فانحاز إلى جانب الحق، وضرب مثلاً فريداً في الثبات على الحق، فأفتى بالمنع، وأعجب جلال الدين بصدقه وشجاعته فقال له: (أنا أعلم أنك لو حابيت أحداً لحابيتني، لما بيني وبينك من أواصر المحبة، وما حملك إلا الدين، فزاد بذلك محلك عندي). ولما ذاعت شهرة الماوردي أثناء فترة إقامته ببغداد لما عُرف عنه من فضل وعلم، وحسن رأي، وجلالة قدر؛ اختير ليكون سفيراً بين رجال الدولة في بغداد، وبنى بويه في أصفهان من سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م إلى ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م، وكان لقربه من الحياة السياسية في عصره، واختلاطه بالأمرء والوزراء أثر كبير، فقام بكتابة العديد من المؤلفات السياسية الرائعة التي صدرت عن خبرة كبيرة ودراسة واسعة مثل (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) وكانت له مكانة ممتازة عند الأمرء والملوك في عصره، فكان يتصدر المراسم والاحتفالات الرسمية، وأسندوا إليه عقد قران الخليفة القائم بأمر الله على خديجة بنت داود أخي السلطان (طغرلبيك) سنة ٤٤٨هـ. واشتهر الماوردي بالحلم والوقار والأدب والتعفف عن سؤال غيره، كما عرف عنه التدين والتنزه عن اللهو والهزل، وشهد المعاصرون للماوردي بالصلاح والتقوى، وهم محقون في ذلك، فقد أخفى مؤلفاته عن الناس في عصره خوفاً من أن يكون قد خالطها الرياء وهو يؤلفها، وعهد إلى صديق له ألا يظهرها إلا بعد وفاته، وترك

الماوردي العديد من المؤلفات منها: كتاب في التفسير و(الحاوي) في الفقه الشافعي و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(أدب الدنيا والدين). والماوردي مفكر سياسي إسلامي يعد من أوائل من اهتموا بعلم السياسة وأصول الحكم الإسلامي، يأخذ أفكاره وآراءه من وحي القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وظل الماوردي في خدمة العلم إلى أن فاضت روحه إلى بارئها في يوم الثلاثاء آخر شهر ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ، وحضر جنازته جمع من الخطباء والعلماء والقضاة يودعون به إلى مثواه الأخير (١).

قال محمد بن عبد الملك الهمداني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي عزاء، فتكلم الشيخ أبو إسحاق واجلا، فلما خرجنا، قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق! لو رآه الشافعي لتجمل به (٢).

الماوردي وأثره:

كان الماوردي ذا خلق ودين وله علاقة وطيدة مع الخليفة ورجال الدولة في زمانه. وكان الخليفة يثق فيه وجعله سفيراً بينه وبين بني

(١) تاريخ بغداد ١٢ / ١٠٢ - ١٠٣، طبقات الفقهاء للشيرازي: ١٣١، الأنساب: ورقة ١٥٠٤، المنستظم ٨ / ١٩٩ - ٢٠٠، معجم الأدباء ١٥ - ٥٢ - ٥٥، الكامل لابن الأثير ٩ / ٦٥١، اللباب / ١٥٦، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق: ٢٤، وفيات الأعيان ٣ / ٢٨٢ - ٢٨٤، المختصر في أخبار البشر، دول الإسلام ١ / ٢٦٥، العبر ٣ / ٢٢٣، ميزان الاعتدال ٣ / ١٥٥، تنمة المختصر ١ / ٥٤٩، مرآة الجنان ٣ / ٧٢ - ٧٣، طبقات السبكي ٥ / ٢٦٧ - ٢٨٥، طبقات الإسنوي ٢ / ٣٨٧ - ٣٨٨، البداية والنهاية ١٢ / ٨٠، لسان الميزان ٤ / ٢٦٠ - ٢٦١، النجوم الزاهرة ٥ / ٦٤، طبقات المفسرين للسيوطي: ٢٥، طبقات المفسرين للداوودي ١ / ٤٢٣ - ٤٢٥، مفتاح السعادة ١ / ٣٢٢، طبقات ابن هداية الله: ١٥١ - ١٥٢، كشف الظنون ١ / ١٩، ٤٥، ١٤٠، ١٦٨، ٤٠٨، ٦٢٨ / ٢ / ١١٠١، ١٣١٥، ١٩٧٨، شذرات الذهب ٣ / ٢٨٥ - ٢٨٧، روضات الجنات: ٤٨٣، هدية العارفين ١ / ٦٨٩.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية، ٤ / ٢٢٧.

بويه وبينه وبين السلاجقة، وكانت بيد هؤلاء مراكز القوة في الدولة، ولقد أهلته ثقافته العالية ووظائفه المتعددة واتصاله برجال السلطة عن قرب وخبراته السياسية للكتابة في الفقه السياسي. وله مؤلفات في كثير من العلوم وله من الكتب السياسية أربعة كتب:

١ - الأحكام السلطانية.

٢ - قوانين الوزارة.

٣ - نصيحة الملوك.

٤ - تسهيل النظر وتعجيل الظفر (في سياسة الملك).

وقد نال كتاب الأحكام السلطانية شهرة واسعة وهو يعد بحق أول من جمع مسائل الفقه السياسي المنتورة في مواضع متفرقة في كتاب واحد. ويقول عن ذلك في مقممة كتابه:

(لما كانت الأحكام السلطانية بولاية الأمور أحق، وكان امتزاجها بجميع الأحكام يقطعهم عن تصفحها مع تشاغلهم بالسياسة والتدبير أفردت لها كتاباً) (١).

وقد ألف الكتاب بأمر من خليفة العصر فالكتاب بذلك ليس كتاب فقه نظري بل هو موجه للسلطة الحاكمة للعمل به وتنفيذه.

يبدأ الكتاب بإعطاء تعريف للإمامة والمؤهلات المطلوبة لتقلد هذا المنصب الهام، والطرق الصحيحة لانعقاد الإمامة، ثم يبين واجبات الدولة وواجبات الشعب نحوها والأمور التي تؤدي إلى عزل الإمام. وبعد أن يعطي تعريفاً لكل من الوزارة والإمارة يتحدث عن أنواع الوزارة والإمارة وسلطات كل نوع والمؤهلات المطلوبة

(١) الأحكام السلطانية ص ٣.

لتوليها، ثم ينتقل لمناقشة المهام التفصيلية لأجهزة الدولة المالية والقضائية والعسكرية.

والكتاب الثاني من كتب الماوردي السياسية هو كتابه (قوانين الوزارة) وهذه رسالة هامة تبحث في موضوع متخصص من موضوعات الفقه السياسي. فقد بحث المؤلف فيها كل ما يتصل بالوزارة من فقه، ابتداء من تعريف الوزارة وأنواعها، ومؤهلات الوزراء إلى علاقتهم برئيسهم ووظائفهم وما يعينهم من سياسة للقيام بهذه الوظائف. وانتهى في هذه الرسالة إلى أن أهم غايات الوزارة تحقيق الأهداف التالية: (دين متبع، سلطان قاهر، عدل شامل، أمن عام، وخصب دائم).

أما كتابا الماوردي الآخران (نصيحة الملوك) و(تسهيل الظفر) فهما كتب الآداب والأخلاق السياسية ولا تدخل في نطاق الفقه (١).

الماوردي والجواري يلبسن الشعر:

قال الماوردي: رأيتُ جاريةً، ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة، لم أشك أنه عاشقٌ لها، وإيها مائلٌ، لما رأيتُ من حركاته إذا نظرت، وسُروره إذا نطقت، وتهلُّله إذا غنَّت. وكانت فوق وصف الواصف من الحُسن والجَمال، وعليها قميصٌ موشَّحٌ، ورداء معيَّنٌ، مكتوبٌ في وشاح القميص:

أغيب عنك بوُدًا لا يُغَيِّرُهُ :: نأي الخَلِّ ولا صَرَفٌ من الزمَنِ
تعلُّ بالشُّغل عنا ما تُكَلِّمنا :: الشغل للقلب ليس الشغل للبدنِ
وعلى طراز الرداء:

أقلَّ الناس في الدنيا سُروراً :: محبٌّ قد نأى عنه الحبيبُ

(١) القاضي أبو يعلى الفراء، د. محمد عبد القادر أبو فارس، ص ٥١٦ وما بعدها.

قال: ورأيتُ جاريةً لبعض الهاشميين يُقال لها عَرِيب، عليها قميصٌ ملحمٌ، موشَّخٌ بالذهب، مكتوبٌ في وشاحه:

وإني لأهواه مسيناً ومحسناً :: وأقضي على قلبي له بالذي يقضي
فحتى متى رَوْحُ الرضا لا ينالني :: وحتى متى أيام سُخْطِكَ لا تمضي
وعلى طراز كُمه:

إذا صدَّ من أهوى وأسلمني الغري :: ففرقة من أهوى أحرُّ من الجمر
ورأيتُ على ماجنٍ جاريةً مكاتم المغنَّية قميصاً في وشاحه
بالذهب:

زُفَراني ليس تقني :: وفؤادي بك مُضني
أترضاك وأبليدي :: لك.. سنا
بأبي كم أمتني :: وإلى كم أمتني
بعدهما أصبح قلبي :: في يد الأحرار رهنا

قال: ورأيتُ في صدر قميص جارية تَبَارِيح الكوفية مكتوباً
بالفضة والذهب سطرأً وسطراً:

يا فقي! قلتُ إذ دعاني هواه :: مستجيباً لصوته ليك
ما بكت مُقلتي لفقدك إلا :: جزعاً أن أموت شوقاً إليك

قال: ورأيتُ مرةً أخرى عليها دُرَاعَةٌ ملحمٌ بترانين إبريسم ولينة
سوسنجرْد وفي دور اللبنة مكتوبٌ:

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا! :: أمسك عليك فإنَّ السهم قد قتلا
أصبتُ أسودَ قلبي إذ رميتَ فلا :: شلتُ يمينك أن صيرتني مثلاً

وكتبتُ بنان جارية الخيزران على ترانين دُرَاعَةٍ لها بذهب:

لم تقل قولاً ولكن حلفت :: أما أحسنُ عين أطرفت
زعمت أني قد لاحظتها :: أيُّ عين لحظت فأعترفت

أظهرت حُجَّة من يعشقها :: واسْتَبَاحَتْ غَفْلَةً وانصرفت
وعلى طراز كُتْمَها:

ليس بي صبرٌ ولا بي جَلْدٌ :: قد نفى حُبُّكَ عني جَلدي
وقال الماوردي: رأيتُ جارية ليعض ولد المأمون، وعليها قلنسوة
عليها مكتوبٌ:

يا تارك الجسم بلا قلب :: إن كان يهواك فما ذنبي؟
يا مفرداً بالحسن أفردني :: منك بطول الشوق والكرب
وعلى كَرَزَن لها:

أنا العبد المقرّ بطول رقٍّ :: وليس عليك من عبدٍ خِلافٌ
قال: ورأيتُ على جارية لا هي كَرَزَناً مكتوباً عليه:

عَدْبَهُ بِالْهَجْر مَوْلَاهُ :: وزاده شوقاً وأضنائه
قدمعه يجري على خدّه :: ولم تنم للوَجْد عيناهُ
قد كتب الحُبُّ على قلبه: :: مُتَّ كَمَدًا يَرْحَمُكَ اللهُ
مكتوباً على النعال والخفاف:

ما وجد للمتظرفات والظراف مكتوباً على النعال والخفاف قال
الماوردي: كتبت جاريةً للمارقي على نعلها بالذهب:

لم ألقَ ذا شَجْنٍ يوح بحبه :: إلا حسبتُك ذلك المحبوبا
حذراً عليك وإنني بك واثقٌ :: أن لا ينال سواي منك نصيباً^(١)
كتاب المنصور:

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن
جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر

(١) الوشاء، الموشى، ص ٧٦، ٧٧، ٨١.

بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم، فقال حدث منهم وهو يضرب:

أطال الله عمرك في صلاح :: وعزياً أمير المؤمنين
بعفوك نستجير فإن تجرنا :: فألك عصمة للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا :: فهينا للكرام الكاتبينا
فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه (١).

خطوط العلماء في الأغلب رديئة:

وقال الإمام الماوردي: خطوط العلماء في الأغلب رديئة
لاشغالهم بالعلم حتى قال الفضل بن سهل: من سعادة المرء رداءة
خطه أي لنلا يشغله تعلم الخط عن تعلم العلم. قيل: والأسباب المخلة
بالخط ثمانية: إسقاط ألفاظ منه أو زيادة ألفاظ فيه أو إسقاط بعض
حروف الكلم أو زيادة حروف أثناءها أو وصل المفصول أو فصل
الموصول أو تغيير الحرف حتى يشبهه حرف بغيره أو ضعف الخط
جملة أو إهمال النقط أو الشكل.

لا يسأل عنها إلا علماء الدين:

عن الإمام الماوردي، رحمه الله، قال: كنت بمجلس درسي
بالبصرة، فدخل علي شيخ مسن قد ناهز الثمانين أو جاوزها، قال:
قصديك بمسألة اخترتك لها. فقلت: ما هي؟ وظننت أنه يسأل عن حادثة
نزلت به. فقال عن طالع إبليس وطالع أم من النجوم ما هو؟ فإِنَّ هذين
لعظيم شأنهما، لا يسأل عنهما إلا علماء الدين. قال، فعجبت وعجب من
في المجلس من سؤاله. وبادر إليه قوم منهم بالإنكار والاستخفاف،
فكففتهم وقلت: هذا لا يقنع مع ما ظهر من حاله، إلا بجواب مثله فأقبلت
عليه وقلت: يا هذا، إنَّ المنجمين يزعمون أنَّ نجوم الناس لا تعرف إلاَّ

(١) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص ٦.

بمعرفة مواليدهم. فإنَّ ظفرنا بمن يعرف وقت ميلادهما أخبرك بالطالع. فقال: جزاك الله خيراً! وانصرف مسروراً. فلما كان بعد أيام عاد وقال: ما وجدت إلى وقتي هذا من يعرف مولدهما (١).

من كلامه رحمه الله:

- قال الماوردي - رحمه الله: ينبغي أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم ليعرف مبلغ طاقته وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحملة بذكائه أو يضعف عنه ببلادته فإنه أروح للعالم وأنجح للمتعلم.

- قال الماوردي - رحمه الله -:

وإذا كانت النفوس كباراً :: تعبت في مرادها الأجسام - وقال: والداعي إلى استسهال المصاعب وتحمل المشاق أمور منها علو الهمة وشرف النفس أما علو الهمة فلأنه باعث على التقدم وداع إلى الهمة وشرف النفس التخصيص، أنفة من خمول الضعة واستنكاراً لمهانة النقص.

- قال الماوردي - في بيان ما يلزم الإمام من أعمال: والذي يلزمه من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نجم مبتدع أو زاغ نو شبيهة عنه أوضح له الحجة وبين له الصواب وأخذَه بما يلزمه من الحقوق والحدود، ليكون الدين محروساً من خلل والأمة ممنوعة من زلل.

والثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتنازعين؛ حتى تعم النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

والثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في

(١) اليوسي، زهر الأكم في الأمثال والحكم، ص ٢٩٩، ٣٠٣.

المعاش وينتشرُوا في الأسفار، آمنين من تغرير بنفس أو حال.

والرابع: إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة؛ حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرماً، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة إليه حتى يسلم أو يدخل الذمة، ليقام بحق الله تعالى في إظهاره (الإسلام) على الدين كله.

والسابع: جباية الفبيء والصدقات على ما أوجبه نصاً واجتهاداً من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق من بيت المال من غير سرف ولا تقثير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

والتاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال، ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة والأموال بالأمناء محفوظة.

والعاشر: أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتصفح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة^(١).

- قال الماوردي: قيل: إن الله تعالى قسم كلامه ورؤيته بين موسى ومحمد، فرآه محمد مرتين، وكلمه موسى مرتين^(٢).

- قال الماوردي: "والقناعة قد تكون على ثلاثة أوجه:

(١) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٧، ١٦.

(٢) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ١٦ / ٢٠٩.

الوجه الأول: أن يقتنع بالبلغة من دنياه ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه؛ وهذا أعلى منازل أهل القناعة، ثم ذكر قول مالك بن دينار: أزهّد الناس من لا تتجاوز رغبته من الدنيا بلغته.

الوجه الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية، ويحذف الفضول والزيادة، وهذا أوسط حال المقتنع، وذكر فيه قول بعضهم: من رضي بالمقدور قنع بالميسور.

الوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف على ما سُنح، فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً، وهذه الحال أدنى منازل أهل القناعة؛ لأنها مشتركة بين رغبة ورهبة، فأما الرغبة: فلأنه لا يكره الزيادة على الكفاية إذا سنحت، وأما الرهبة: فلأنه لا يطلب المتعذر عن نقصان المادة إذا تعذرت.

- قال الماوردي: " فينبغي لطالب العلم ألا يني في طلبه، ويتنهد الفرصة به، فربما شخّ الزمان بما سمع، وضنّ بما منح، ويبتدئ من العلم بأوله، ويأتيه من مدخله، ولا يتشاغل بطلب ما لا يضرّ الجهل به فيمنعه ذلك من إدراك ما لا يسعه جهله، فإن لكلّ علم فضولاً مذهلة وشروراً مشغلة، متى صرف إليها نفسه قطعته عما هو أهم منها".

- قال الماوردي: " واعلم أن لكلّ مطلوب باعثاً، والباعث على المطلوب شينان: رغبة أو رهبة، فليكن طالب العلم راغباً وراهباً، أما الرغبة ففي ثواب الله تعالى لطالبي مرضاته وحافظي مفترضاته، وأما الرهبة فمن عقاب الله تعالى لتاركي أوامره ومهملي زواجره، فإذا اجتمعت الرغبة والرهبة أدت إلى كنه العلم " (١).

* * *

(١) أدب الدنيا والدين، ص ٥٤.